

ذاكرة الثقافة

عاشق الزمن السعيد يستعيد كنوزه

سحاب: السينما احتضنت العصر الذهبي للأغنية العربية

لا يتعب الباحث والاكاديمي والمؤرخ اللبناني فيكتور سحاب من البحث والتنقيب في كنوز وتاريخ الموسيقى العربية. بعد كتابيه الاخيرين عن صباح وزكي ناصيف، ها هو يطرق بابا جديدا في البحث، أملا في ان يكون فاتحة للعلماء والمؤرخين الاخرين للتنقيب في هذا المجال



المؤرخ الموسيقي فيكتور سحاب.

كتاب فيكتور سحاب "اضواء على السينما الغنائية العربية، 1932 - 1960" ("دار نلسن") يعرض الحقبة الذهبية لهذا النوع، من مصر مع محمد عبد الوهاب الى لبنان مع صباح وفيروز.

"الامن العام" التقت المؤرخ في حديث عن الموسيقى العربية، وكيفية تطورها مع دخول السينما اليها.

عندها قلت لامي: لماذا تقولون انها ماتت. انظري. لم افهم انها مجرد صورة فقط. خلاصة القول انه منذ صغرنا تشبّعنا بهذا التراث وافلام عبد الوهاب وام كلثوم ونور الهدى وليلى مراد. حين حصلت على شهادة الماجستير في الموسيقى العربية لاحقا، وكانت اول ماجستير في تاريخ الجامعة اللبنانية في مجال الفنون، فما عندي هذا الاهتمام وقررت التخصص

■ كيف جاءت فكرة كتاب "اضواء على السينما الغنائية العربية، 1932 - 1960"؟
□ الامر اولاً يعود الى عشقي لهذا الموضوع. منذ صغري، كانت امي تأخذنا الى السينما. اذكر انه في عام 1944 توفيت اسمهان. لاحقا، اخذتنا امي لمشاهدة فيلم "غرام وانتقام" في يافا، فرأيت اسمهان تغني وتمثل على الشاشة.

فيه. منذ فترة، وقعت على اطروحة ماجستير الكاتب المصري جلال الشرفاوي عن السينما في مصر من عام 1932 حتى عام 1960، لكنها ضمت كل الافلام الغنائية وغير الغنائية. ما فعلته انني استخلصت منها الافلام التي اعرف انها غنائية او تلك التي تشترك في تمثيلها بعض المغنيات. الجدول الذي يضمه كتابي هذا يشتمل على 420 فيلما غنائيا هي عبارة عن الكتلة الاساسية من اهم افلام الغناء العربية. في لبنان الذي يأتي في المرتبة الثانية بعد مصر من حيث كمية الافلام الغنائية، انجزت افلام بعد عام 1960 لصباح وعبد الحليم حافظ وافلام فيروز الثلاثة. وقد اضفتها الى الكتاب. حين شعرت ان لا احد انجز جدولاً مماثلاً، قمت بذلك بنفسي. منذ عامين، طلب مني "مركز دراسات الوحدة العربية" المشاركة في مؤتمر في الاسكندرية. يومها، انجزت له دراسة تشكل اليوم المقدمة التي يتضمنها هذا الكتاب. جمعت الدراسة مع الجداول، الى جانب صور الافلام التي اخذتها من الصديق عبودي ابو جودة مشكورا، خصوصا وانه يملك مخزونا هائلا من الصور والملصقات، فمن يتمشى في اروقة مكتبه، كمن يتمشى مع التاريخ.

■ اخبرنا عن عنوان الكتاب، كيف اخترته؟
□ طبعاً، السينما الغنائية العربية كانت في مصر وخارج مصر. لكن للحقيقة، عبر رسدي لتطوير اشكال الغناء من مونولوج ومحاوراة الى اوبريت في السينما الغنائية، تبين ان اهم المحاولات تركزت في مصر. تلك النقطة الاولى. اما النقطة الثانية، فهي ان السينما الغنائية تحتاج الى موسوعة من مجلدات عدة ضخمة كي نوفيها حقها. انا ادرك هذا الشيء، وادرك انني لا افي هذه السينما حقها بهذا الكتيب. لهذا السبب، جاء العنوان "اضواء على السينما الغنائية العربية"، يعني اضاءة من هنا وهناك لتشكيل فكرة عامة عن مسار هذه السينما،

خصوصا لناحية تطوير اشكال الغناء وكيف تطورت من عصر سيد درويش وكامل الخلعي الى عصر عبد الوهاب وام كلثوم اللذين بدأوا بالسينما الغنائية المصرية، لان البداية كانت من مصر. هذه الاضواء تعطي فكرة بسيطة، والكتاب المتواضع في رأبي هو دعوة الى المهتمين لاصدار دراسات موسعة عن السينما الغنائية لانها تستحق.

■ كيف تطورت الاشكال الموسيقية مع دخول السينما اليها؟

□ هناك اشكال موسيقية غنائية عربية ليست مناسبة للسينما او للمسرح، مثل الموشح او الدور. اهم ما تحتاج اليه السينما والمسرح الغنائيان هو المحاوراة الغنائية التي نشأت في المسرح ثم السينما، فابطال الفيلم في حاجة الى المحاوراة. لما كان فيلما غنائيا، كان طبيعيا ان تكون المحاورات غنائية. وهذا النوع من الغناء لم يكن موجودا في الغناء العربي قبل بداية القرن العشرين. دخل الينا من خلال المسرح ومنه الى السينما الغنائية. ثم هناك المونولوج، وقد رصدت اول مونولوج غنائي كان لسيد درويش بين عامي 1919 او 1920 بعنوان "والله تستاهل يا قلبي" من احدى مسرحياته. المونولوج من الانواع التي تحتاج اليه السينما والمسرح الغنائيان، فهذا الشكل مستوحى مما يسمى الـ aria في الاوبرا الايطالية. والـ "اريا" عبارة عن اغنية ضمن سياق الاوبرا الايطالية، حين يصدم بطل المسرحية، او يفرح، او يحدث له حدث جلل، يحتاج الى بعض التأمل والوقوف منفردا ليخاطب نفسه، فتأتي هذه الاغنية ليعبر فيها عن مشاعره. لذلك، لا تحتوي هذه الاغنية على مقاطع تتكرر، لانها ذات طابع سردي. وهذا ضروري جدا في سياق السينما الغنائية. فسياق قصة الفيلم تحتاج الى هذا العنصر. مثلا، لعبد الوهاب مونولوج "ايها الراقدون تحت التراب" بعد ان تموت حبيبته في فيلمه "دموع الحب" عام 1935. المونولوج والمحاوراة اسسهما عبد الوهاب في السينما الغنائية.

■ يعني ان عبد الوهاب هو الذي كان رائدا في هذا المجال؟

نقطة على السطر

مكتبة وطنية للسينما؟

الامة العظيمة هي امة تحفظ تراثها، وتؤرشف ذاكرتها، وتراكم الانجازات الفكرية والفنية والعلمية والاكاديمية والمعرفية لابنائها وبناتها، للافراد والمجموعات. في لبنان عندنا مكتبة وطنية لها تاريخ عريق، رغم المصاعب والاهمال والبيروقراطية، ورغم بعض المراحل القاتمة المرتبطة بسنوات الحرب، وبذهنية المحسوبيات الذي يقضي اصحاب الجدارة المهنية احيانا.

شهد العقد الماضي في لبنان مشاريع وقرارات ادارية ومبادرات رسمية، ودعم من دول صديقة من اجل انبعاث المكتبة الوطنية، واعادة تأسيسها بعد انتقالها الى مقر جديد، ليس ال كلية الحقوق العريقة سابقا في منطقة الصنائع في بيروت. اليوم يفترض ان المحفوظات صنت ورممت ووضعت في متناول الباحثين والباحثين، وان خطوات اجتيزت على طريق التحديث والاهتم، ما يسمح بالاستفادة من هذه الثروة الحضارية الموهولة التي تملكها المكتبة الوطنية في لبنان.

لكن ماذا عن مشروع السينماتيك، او المكتبة الوطنية السينمائية؟

حين نسجع فكتور سحاب يستعيد افلام العصر الذهبي، لا نستطيع الا ان نستعيد هذا السؤال... تلك "السينماتيك" رفع لواءها احد وزراء الثقافة النشيطين مطلع الالفية، بل وضع لبناتها الاولى، وهو الوزير السابق غسان سلامة. ثم رقد في الادراج بعد محاولات خجولة لاطلاقه، لعبت دورا مهما فيها السينمائية الراحلة رندا الشهاب.

لم نعد نسجع اليوم عن السينماتيك، ولا نعرف مصير كنوزها ومحفوظاتها من الاشرطة والافلام التي تشكل جزءا حيويا من ذاكرة لبنان الحديث، قبل الاستقلال وبعده... هل سقرت كالعادة؟ هل ضاعت؟ هل تأكلها الرطوبة حيث تقبع في احد المستودعات المجهولة في قصر الاونيسكو او في وزارة الثقافة؟ هناك على حد علمنا افلام قديمة ونادرة ولا وجود لنسخ اخرى منها. اين افلام الرائد الايطالي الاصل جوردانو بيدوتي (مثل "مغامرات الياس مبروك") التي تعود الى الثلاثينات، واين افلام الخمسينات والستينات، بدءا بالمخرج الرائد جورج نصر؟ اين افلام فيروز والرحابنة مثل "بنت الحارس" و"سفر برك" وحتى الفيلم الذي حققه يوسف شاهين "بياع الخواتم"؟ وتكر العناوين وصولا الى رواد السينما اللبنانية الجديدة مثل الراحلين رندا الشهاب ومارون بغداداي وجوسلين صعب وبرهان علوية؟ اين كنوز استوديوهات عريقة مثل "بعلبك" و"هارون"؟ اخيرا، الا تقتضي الاصول ايداع نسخة من كل فيلم لبناني او بصور برخصة لبنانية وفي لبنان، قصيرا ام طويلا، رواثيا ام تسجيليا، تجريبيا ام تجاريا، لدى محفوظات السينماتيك؟ علما ان السينماتيك، اذا اخذنا نماذج الدول الراقية، كفرنسا مثلا، يجب ان تكون مؤسسة ثقافية كبرى كالمتحف الوطني والمكتبة الوطنية. لا يقتصر دورها على حفظ الافلام وترميمها، ولا حتى على حفظ السكريبتات والسيناريوهات والارشيف، والمقالات والدراسات والكتب ودفاتر التصوير، والصور والملصقات... بل تلعب تلك المؤسسة دورا في نشر هذا التراث واحيائه، من خلال عروض ومعارض وندوات ومهرجانات واصدارات ومواقع الكترونية، بل صالة يومية تملكها، ومن خلال سياسة رعاية وتوجيه ودعم لنادي السينما في الجامعات والمعاهد والجمعيات الاهلية في كل المناطق اللبنانية.

اليوم هناك مؤسسات خاصة، وجمعيات اهلية، اخذت جزءا من دور الدولة في حفظ ذاكرتنا البصرية ونشرها. وهي مبادرات تستحق التحية، نذكر منها جمعية "بيروت دي سي" التي باشرت العمل منذ سنوات على سينماتيك رقمية، تبدأ من قاعدة معلومات وبيانات، وتؤرشف وتحفظ ما تيسر من الوثائق والاعمال الكترونية، وتضعها بين يد الجمهور. اطلقت هذه "السينماتيك" الافتراضية هذا العام في سينما متروبوليس بعروض لافلام رندا الشهاب.

لكن هذه المجموعات الخاصة، لا احد يعرف اي استمرارية سيكون لها على مر الاجيال، ومن يمتلك محتوياتها ومن يصونها ويؤمن استمراريته. المشاريع والمبادرات الاهلية والخاصة يجب دعمها وتشجيعها. لكنها تبقى مرتبطة بافراد وظروف مرحلية.

اما السينماتيك الوطنية، فهي ملكية عامة في عهدة الدولة، وتمضي في النمو والتجدد والاتساع، وتنتقل على مر الاجيال والعصور. والعمل عليها اولوية وطنية.

تري هل تضعها وزارة الثقافة في الحكومة الجديدة على قائمة الاولويات؟

سمير مراد

■ لم نتحدث عن تقسيم الكتاب؟
□ بداية، بدأت دراسة "من المسرح الى السينما" وكيف انتقل الغناء العربي من المسرح الى السينما، وكيف افادت الاخيرة من المسرح، خصوصا من اعمال نجيب الريحاني، ومنيرة المهديّة، والمسرحيات التي كان سيد درويش يشارك فيها تلحينها، وكامل الخلعي، وابراهيم فوزي وغيرهم ممن اشتغل في المسرح الغنائي. بعد ذلك، اتوغل في كيفية تطور اشكال المحاورّة ثم المونولوج ثم الاوبريت في هذه الافلام. في اخر الدراسة، اقدم عرضا سريعا للعناصر التي طورتها السينما الغنائية في التوزيع الاوركستراي. وينتهي الكتاب بجداول الافلام.

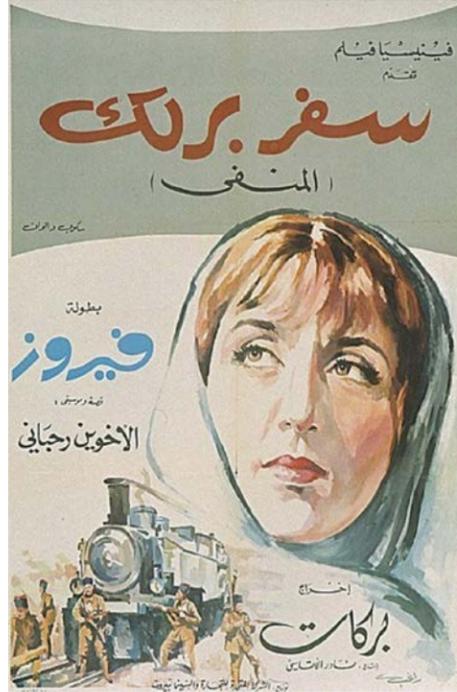
■ تخلص الى نهاية السينما الغنائية العربية، لماذا في رأيك؟

□ يجب ان تسأل ابن خلدون عن السبب، لا انا. هذه امة كانت في صعود، ثم دخلت اليوم في افول. هناك محاولات جدية للنهوض من جديد، لكن هل ستنجح؟ المستقبل يجب عن ذلك. الان، نحن نتلقى صدمة حضارية خطيرة، هي صدمة العلوم والادوات الرقمية، ولا نعرف الى ماذا ستنتهي بنا. هذا يعد تحديا بالنسبة اليها، فهل سنستجيب هذا التحدي بان نهض ونصبح فاعلين؟ لا املك الجواب. ابن خلدون يقول انه كل ثلاثة اجيال تهبط العصبية ويحتاج الامر الى عصبية جديدة للنهوض من جديد.

■ ما هي مشاريعك الجديدة؟

□ دراسة اجريتها عن سيد درويش وستصدر قريبا في كتاب. اشتغلت فيها على يوميات سيد درويش من خلال الصحافة المصرية في ذلك العصر حتى عام 1923. لذا، استطعت ان اضبط بالايام اول عرض لكل مسرحية من مسرحياته الثلاثين. اذ اكتشفت انه انجز ثلاثين مسرحية وليس 23 كما هو شائع. هناك مسرحيات لم يذكرها المؤرخون بتاتا. كما اكتشفت يوم عرضها الاول. وهذا كله سيصدر عن "دار نلسن" مزودا جداول الاعمال.

س. م.



ملصق فيلم "سفر برك" لفيروز.



ملصق فيلم "فاطمة" لأم كلثوم.



غلاف الكتاب.



محمد عبد الوهاب وفايزة احمد.

التي خصصت لها جدولين، الاول بالافلام التي شاركت فيها قبل عام 1960، واخر بالافلام التي شاركت فيها بعد الستين، وكذلك الامر بالنسبة الى افلام عبد الحليم، وفيروز، وياللاسف، لم اضع جدولا بافلام وديع الصافي الخمسة، لكن اعماله لا تعد سينما غنائية، لانها كانت مجرد اغنية في فيلم ليس الا.

فيلمه "الوردة البيضاء" سنة 1933، كانت ام كلثوم في فيلم "وداد" (1935). شاركت ام كلثوم في ثمانية افلام بدأتها بفيلم "وداد" ثم ختمت اخر فيلم سنة 1948. كل هذه الامور واردة في الكتاب. على اي حال، لا بد من الاشارة الى انني ضمنت الكتاب جداول تفصيلية بافلام عبد الوهاب، وام كلثوم، ونور الهدى، وصباح

□ اجل، لم يسبقه اليه احد. مثلا، في فيلم "الوردة البيضاء" لعبد الوهاب سنة 1933، هناك سبعة مونولوجات. قبلها كان مونولوج سيد درويش "والله تستاهل يا قلبي" سنة 1920. بين عامي 1926 و1927، بدأ التنافس بين عبد الوهاب ومحمد القصبجي على انتاج المونولوج، لكن في غير سياق المسرح الغنائي او السينما الغنائية، بل كان مجرد اغنيات عادية تصدر في اسطوانات "بيضافون". حين حان وقت السينما الغنائية، كان عبد الوهاب مركزا على المونولوج الغنائي.

■ هل عبد الوهاب كان صاحب اول فيلم غنائي؟

□ اول فيلم غنائي كان لنادرة، والحانه من توقيع زكريا احمد وهو "انشودة الفؤاد" عام 1932. لكن بحسب تحقيقي التاريخي في صحافة تلك الزمن، وجدت ان هذا الفيلم ليس غنائيا بالمعنى الحقيقي للفيلم الغنائي لان الاغنيات التي تضمنها كانت مجرد اغنيات مستقلة لا علاقة لها بسياق القصة في الفيلم، وقد الصقت به لشهد المشاهد فقط.

لذلك، ورغم انه سبق "الوردة البيضاء" لعبد الوهاب، الا انه لا يعدّ فيلما غنائيا. حتى ان مجلة "روز اليوسف" انتقدته يومها معتبرة ان الاغنيات في سياق مختلف عن الفيلم. ايضا، كان عبد الوهاب البادئ في المحاورّة عبر اوبريت "قيس وليلى" (1939)، وهذه الاوبريت تعتبر بداية الاوبريتات والمحاورات في السينما الغنائية. لذا، عبد الوهاب كان المؤسس لهذه النمط، وتبعه لاحقا محمد فوزي، وفريد الاطرش، وعبد العزيز محمود، وكارم محمود وعبد الحليم لاحقا في اوائل الخمسينات. بعدها، انجز اوبريت "اللي

يقدر على قلبي" التي غنتها ليلي مراد في فيلم "عنبر" عام 1948. لكن يسجل لفريد الاطرش ايضا انه اكثر فنان انتج اوبريتات في افلامه الغنائية، بمعدل تسع اوبريتات في ثمانية افلام. لكن اوبريت "قيس وليلى" تختلف عن الاوبريتات الاخرى التي يغلب عليها طابع فكاهي مرح بينما اوبريت "قيس وليلى" ذات مسموع اوبرالي لانها جديّة مثل اعمال الاوبرا.

” اول مونولوج غنائي كان لسيد درويش بعنوان "والله تستاهل يا قلبي"

تأثر عبد الوهاب بالموسيقى الغربية، لكن كل اغنياته ذات طابع عربي

■ يعتبر بعضهم ان علاقة خاصة تربطك بعبد الوهاب؟

□ بعضهم يأخذون علينا حينا لعبد الوهاب، لكن الحقيقة انه اذا تعمّقت في دراسة التاريخ وتاريخ تطور الاغنية واشكالها والتوزيع الاوركستراي، ستزداد اعجابا بعبد الوهاب. مثلا، في اغنية "ماليش امل" سنة 1949، يظهر فيها انور منسي في عزف مبدع فعلا، وهذا سببه ان عبد الوهاب كان متطلبا في الحانه، وكان يتقدم في تأليفه الموسيقي تقدما يفرض على العازفين ان يجتهدوا ويحسنوا العزف. وهذا لم يظهر مع اخرين كما ظهر مع عبد الوهاب.

■ في رأيك، في ماذا يعود الفضل الى عبد الوهاب؟

□ هو اهم ملحن، كما انه مغن خطير. وباللاسف، فالاذاعات والتلفزيونات حين تبث اليوم اعمال عبد الوهاب وام كلثوم، فانها تلجأ فقط الى الجزء الاخير من حياتهما الفنية، في حين ان اعظم غناء ام كلثوم مثلا، كان في الثلاثينات من القرن الماضي. كذلك

الامر بالنسبة الى عبد الوهاب. كانا يتمتعان ببراعة ومقدرة خارقة في الغناء. وكذلك، يعود الى عبد الوهاب الفضل في تطوير الغناء العربي.

■ هل هذا بسبب تأثره بالموسيقى الغربية؟
□ عبد الوهاب في رأيي يجسد صيغة تربوية نموذجية. فهو ابن شيخ مقرئ، ترعرع في تربة التجويد القرآني والتواشيح، واطلع على الموسيقى الغربية بعدما اكتملت شخصيته العربية الاسلامية الاصيلة. اطلعه على فنون الغرب لم يشكل خطرا عليه، بل على العكس، في حين انه عندما لا تكون شخصية الفنان مكتملة حضاريا وثقافيا، ويطلع على ثقافات الاخرين، هنا يكمن الخطر في التخریب. عبد الوهاب تأثر بالموسيقى الغربية، لكن كل اغنياته كانت ذات طابع عربي رغم انه ادخل الكونتراباص والتشيللو والبيانو في اغنية "الصبا والجمال".

■ ماذا عن نجوم ونجمات هذه الافلام؟
□ اول من استجاب لتحدي عبد الوهاب في